www.kotobarabia.com

قصص

غرفة ضيقة بلا جدران

www.kotobarabia.com

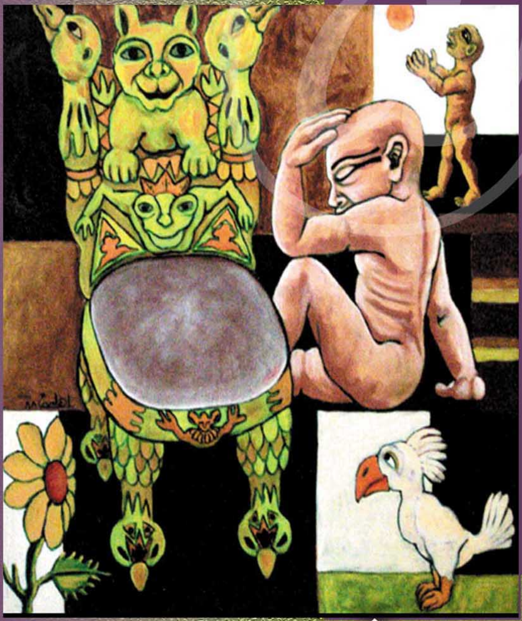

السيد نجم

رواية قصيرة

" غرفة ضيقة بلا جدران "

بقلم

" السيد نجم "

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

-١-

معذرة يا سيد الألم

هبت الريح المنحدرة من نشيد الألم, ولأنه لم يتـاجر فى بنات الهوى ولا يعرف سوى الكتب القديمـة.. تلبسـته الدهشة.

الدهشة .. أوقعته فى عتمة المجهول, وفى العتمـة توصـد أبواب البكاء , وتفتح مزاليج الدرب المحتوم .

... ...

أصبح جسده أكثر خفة, ليس بسبب أن فقـد خمسـة كيلوجرامات من وزنه خلال اثنا عشر يوما, ولا بسبب ذاك الألم الذى نهش أمعائه فجأة.

شعر وكأن خرطوم نقل المحاليل المثبت فى ذراعه اليمنى أو اليسرى, مع خرطوم "الرايل" الملعون الذى رشـق إحـدى فتحتى أنفه الى البلعوم ثم المريء فالمعدة .. معا يحملانه ما بين السماء والأرض.

وان بدا للرائى الذى يجهل ما يشعر به من خفه, أنـه مثبتا على سريره .

... ...

"إن شاء الله خيرا..لا تحزن, اطمئن"

قالها الممرض المؤهل بشهادة دراسية معتمدة وبعشر سنين من العمل فى المستشفى الخاص, بـدا وكأنـه يـزف البشرى, وهو يدرك خطورة سقوط خرطوم "الرايـل" قبـل إتمام دوره.لم تنحصر مهمة خرطوم(الرايـل) علـى نقـل إفرازات معدته الغامضة الى كيس خارجي, هونـت عليـه أعراض القيء المستمر والفواق المزعج الذي ألمت به بسبب شلل أمعائه المفاجئ, حتى أن الطبيب المعالج حذره قـائلا: "إنها حياة أو موت .. لو فشلت فى إدخال الخرطوم من أنفك سوف تموت خلال ساعات معدودة" قالها مع اللحظات الأولى لدخوله المستشفى !

شعرت الزوجة بالقلق, لـم تطمـئن كمـا طلـب الممرض منها ومن زوجها. تمنى لو تشعر بالسـعادة التـي غمرته لتخلصه من ذاك الخرطوم!!. لم تترك للأمانى فرصة لأن تزدهر, أسرعت الى رئيسة التمريض بالدور التاسع من مستشفى القـاهرة التخصصـى. عـادت فـورا, أخبـرت زوجها:"محمود الممرض أخبر الجميع, ووصل الخبر كمـا البرق الى الاستشاري الكبير المعالج"!

... ...

طلب من زوجته أن تقرأ له من الجريدة, وأن تضئ شاشة التلفاز , لعله ينشغل عن ألمه الذي لم يبرحه بعد, وان خفت وطأته قليلا .

..هروب متعهد حفلات "أوبرا عايدة" دون سداد مسـتحقات الفنانين, المتعهد حمل معه مليونين ونصف المليون جنيه .

.."ليندا فرانكلين", سبع وأربعون سنة, تعمـل فـى مكتـب التحقيق الفيدرالى.. كانت تتسوق من المحل التجـارى فـى إحدى ضواحى واشنطون , وأصـبحت الضـحية التاسـعة لقناص مجهول أزعج العاصمة الأمريكية.

..يقول "بوش" رئيس الولايات المتحدة الأمريكيـة أن الاعتداءات الإرهابية فى الكويت واليمن وإندونيسيا مخطـط واحد.

كان يتمنى أن يقتنص أحلامه الطائرة هناك, لم يتـابع اللعبة . يتجدد الألم الذى حير الطبيب الكبير , وطلب عمـل أشعة مقطعية على البطن فورا.

... ...

اختلق المريض سماء تخصه وحـده, خـط شـريعته, واعتنق الحكمة التى ما كان يعرف شيئا عنها.

"الاعتياد" يفقد الرأس ملكة التفكير والتفكر, وفى الألـم والعجز محطة لتجاوز اعتيادية الأيام والليالى والأشـياء.وأن فى تناول "الطعام" نعمة لا يدركها أصحاب عادة تناوله ثلاث مرات يوميا , وربما أكثر.

تجاوز الرجل ما دار برأسه , سأل زوجته التى ما أن سمعته ظلت تضحك طويلا على الرغم من حزنهـا الـدفين على جسده المعلق بالخراطيم . قهقهت وهو مازال يلح جادا يقول: "أريد أن آكل طبق "بصارة"!!

حاول إقناعها, لعلها تتعاطف مع رغبته تلـك:" هـل تعلمين ماذا أرى منذ صباح يومنا العاشر هـذا فـى تلـك المستشفى؟" ..لم ينتظر إجابة :"رأيت طبقا معبـأ بالبصـارة يغازلنى فى سقف الحجـرة..أنفـى تشـم رائحـة التقليـة والنعناع!!"

يالها من وجبة سخية وشهية , تلك "البصارة" التى لـم يتناولها منذ خمس عشرة سنة, منذ أن تزوج التـى مازالـت تضحك .

... ...

خال نفسه مع "البصارة" يصطاد فاكهة محرمة سـوف تنزعه من جسده المقيد الى سماء أحلامه الغامضة!

تناول اللهفة نحو يوم آخر, يتمنى لو يعانق الغد وبعـد الغد. لكن العصافير بلا أجنحة , وأحشائه التى قفـزت مـن خلف جدران بطنه تعلقت بالسنة النار .

... ...

لم تكن تلك الورود المقيدة فى غلالـة مـن الـورق السيلوفان تشعره بالبهجة أو الأمل. لمحها تذبل يوما بعد يوم. وعندما قررت زوجته تسليمها الى عاملة النظافة..تجاوز كل ألم. علا صوته ونهرها: "لن يحدث, دعيها تذبل ولا ترميهـا فى سلة المهملات."

صبرت الزوجة حتى انتهى من كلماته المنقوصـه, وقد نطقها ممزقة. ثم قالت: "لن القى بالباقـة غاليـة الـثمن تلك..". كان يعلم أنها تتكلم عن تلك الورود الصناعية التـى بلا رائحة, و لم تذبل .

لم يجد فى نفسه القدرة على المناكفة , لكنه حاول دون أن ينطق بكلمة واحدة, تابع محاولته الخاصة جدا فى اقتناص أحلامه من جديد ..وحده .

... ...

تعقب الرجل المـريض سـبل المقاومـة .. وان بـدا مستسلما للشكشكات والخراطيم المعلق بها. ممدد الذراعين , يبدو الرأس بمستوى الجسد , ومع ذلك لا يشغل من مسـاحة السرير إلا القليل, ظن أنه تأقزم أكثر من اللازم.

تظن جماعات الزوار المتراصة بين جوانـب الحجـرة التى ضاقت بهم, وكأنه ليس متابعا لثرثرتهم . إلا أنه بقـى متابعا ملهوفا , وبقى مشاركا وان لم ينبس ببنت شفه.

الخبيث عقد عقدا مع قوى غامضة وصادقته, قال لهـا: افتحى الأبواب أيتها الريح الشديدة, افتحـى النوافـذ أيتهـا العصافير العنيدة, افتحى الأرحام أيتها المولدات المـاهرات, افتحى النار أيتها الحرب المقدسة .

……………………

-٢-

معذرة يا سيد الحرب

كل صباح جديد,مع بداية مرضه, كان يبحث عن يـوم آخر, وعن غرفة بلا أبواب ولا نوافذ..بلا سقف. يحلـم لـو يسير فوق طريق أخرى غير التى وجد جسده عليها.

تمنى لو يعتنق دربا يجهل الألم, فيـه يسـمع أصـداء صوت خطواته عاليا,وأنفاسه رتيبة مستقرة, مع صوت فكيه ولسانه يلوك جرعة ماء.. الماء الذى لم يتذوقه منـذ بدايـة الوعكة.

آه .. يا لمذاق الماء, نعم للماء مذاق, قالها ونظر الـى زائريه. بعد صمت قالوا : نعم.. نعم,

للماء لون وطعم ورائحة!

... ...

خلال زيارته الأولى, اكتفى الطبيب المعـالج بنظرتـه الباردة غير المبالية, لتؤكد ما صرح به لسانه: "سوف نفـتح بطنك بنسبة سبعين فى المائة, لعلنا نعرف سر شلل أمعائـك ومعدتك, سر الانسداد المعوى الذى تشكو منه."

لما تعلقت عينا المسجى فى صمت بشـفتي الرجـل اكثرٍ,سأله إن كان قد أجرى عملية جراحية منذ فترة قريبة , فأومأ المريض, ووجد الطبيب ما يقوله: "أخشى ما أخشاه أن يعود الالتصاق ثانية وبسبب الجراحة الجديـدة!!" , فـالتقط الهامد على سريره ومضة جب لا يعرفه ويخشاه .لم يشأ أن يبوح بما راوده.

... ...

إلا أن يموت وحيدا, ذاك الذى يأتى من جهات شتى.. تحت رذاذ المطر وصفير البرد ووهج الشمس..وفوق سرير العجز.

يوم ارتدى "بيادة" المجند مع زملاء كليتـه فـى زمـن الحرب الأخيرة بعد معارك ٦٧, لم تطارده خفافيش الجـب اللئيمة ليلا, ولا أشواك الصبار .

تذكر أيام تجنيدهم الأولى, كانوا يمزحون بالموت وعليه, فنشروا نعى "محروس", زميلهم (الراقد بينهم) فى الجريـدة الصباحية! لم يهاب أحدهم الجب, وضحكوا لليلة كاملة حتى وهم داخل محبسهم فى سجن الوحدة, عقابـا لهـم وتنفيـذا

لأوامر قائد مركز تدريب الخدمات الطبيـة, وقـد شـاركهم الضحك فيما بعد قائلا: "تمزحون بالموت..الموت!!".

... ...

احتواه الأرق وشغل نفسه بالأسئلة لساعات طويلة. سأل أمعاءه العاجزة أن تلين, وربه أن يستجيب لدعاء الـداعين , تلك الأدعية التى التقطها بأذنيه من بعضهم فور رؤيتهم لـه مسجيا فى هدؤ, والتقطها بعينيه فى نظرات زوجتـه التـى رافقته الغرفة.

لولا تلك البحوث المتتالية الكثيرة.. من أشعة مقطعيـة, ومنظار قولون, وأشعة تقليدية , لولاها لأعتقـد أن الهـلاك أقرب مما يتوقع. كلما بدا فحصا جديدا عاوده الأمل.

شعر وكأنه يحارب الآتي , وخلف عتبـة الغرفـة تنـام جنوده البائسة...

... ...

ما كان يعرف عن جنوده إلا المشاكسة, غير مبالين . صوت انفجار هنا, وأزيز طائرة هناك, ودوى مـدفع بعيـد, وآهات لا تنقطع فى العنبر الذى يقوم على تمـريض رواده

بالمستشفى الميدانى العسكرى فى زمن الحرب..عند الكيلـو ١٠٥ طريق القاهرة-السويس.

مع بداية المعارك صام الجنود والأطبـاء, المصـابون والمعالجون.. بغية ملاقاة ربهم تائبين , و فى فترة تالية وقد حاصرتهم القوات الإسرائيلية بعـد ثغـرة "الدفرسـوار", و نجحت فى الوصول الى طريق السويس الإسفلتي.

كان فى البداية يتفاخر بقدرته على الصوم وأنـه يعـف الطعام والشراب.. غير مجهد مع مشقة العمل ليل نهار, ومع آهات المصابين على أرض المعركة شرق قناة السويس بعد عبور القناة.

فى ذاك اليوم البعيد, اليوم الخامس عشـر مـن بدايـة المعارك انتابته وخزه فى أمعائه للمرة الأولـى ولـم يكـن يستشعرها من قبل. يوم أن صدمه مشهد علمهم أمام حـدود وحدته عندما لمح الخطين الزرقاوين يحتضنا نجمـة داود السداسية. تذكر شعارهم: من النيل الى الفرات!!

فى تلك الأيام البعيدة لم يشعر بالحصار , غرفته موصدة الأبواب والنوافذ هى الحصار...

... ...

راح المريض ينظر فيما حوله جـاحظ العينـين, لـم تستطع زوجته الرد على سؤاله: هل لم يعد أمل فى شفائى..؟

انقضت خمسة أيام بلا طعام ولا شـراب , مرشـوقا فـى سريرى, معلقا فى كيس جمع إفرازات المعـدة, وزجاجـات المحاليل؟!

على غير توقع نظر بطرف عينيه نحوهـا ..زوجتـه صامتة على غير المعتاد , فشعر بالندم. يبدو انه عبء تنوء عن حمله , يعرف عنها قدرتها الفائقة على مداراة مشاعرها الى غير حقيقتها. يعلو صوتها بالضحك مرة, وبالصراخ فى وجه الممرضات مرة.. ودائما تبدو قوية أكثر من اللازم!

... ...

انقطعت صلة جماعة الرقباء الطبيين فـى المستشـفى الميدانى ليومين متتالين منذ بدء المعركة.وهب الجميع نفسه لدشمته , يقوم بالعمل على رأس مجموعة الممرضين الجنود.

ولما كان المصابون قلة, والعزلة مره , ملوا محبسـهم الاختيارى. مع اليوم الثالث لبوا نداء زميلهم "بطرس" الـذى شق هدؤ المغربية , وصاح وسط الدشم قائلا:"ميعاد الرضعة يا جماعة!!". خرجوا إليه , دخلوا دشمته, تناولوا ما أعده من طعام . أكل معهم وقد صام يومه عفوا أو جبرا, فقط حقـق رغبته منذ أن التقوا للمرة الأولى بمركز تـدريب الخـدمات

الطبية منذ سنوات ..أن تأكل مجموعة الرقباء الطبيين معـا, حتى أيام الحرب!

... ...

حديث المسجى على سريره لزوجته الصامتة عن مذاق الطعام وحلاوته فى زمن الحرب, وهب هواء الغرفة نسـمة ندية, معبأ بكل روائح الأطعمة المحرمة عليه, فأصبح الجـو منعشا, وإلا لماذا علا صوته, وبدت بشرته هكذا مشرقة؟!

... ...

.. وافقت السلطات المركزية بدعم الحكومة الفيدراليـة وامدادها بكل الإمكانات المناسبة للقبض على السفاح الغامض فى واشنطون .

.. "بوش" رئيس الولايات المتحدة فى تصريح له: سوف نسقط النظام الحاكم فى العراق وعلى رأسه صدام حسـين.. إن لم يوافق على عودة المفتشين الدوليين, وان وافق.

.. أحدهم أعلن أن متعهد حفلات أوبرا عايدة لم يهـرب, بدليل أنه ترك مدير أعماله فى القاهرة, كما أعلن أن مـدير الأوبرا سدد كل مستحقات الفنانين من خزينة الأوبرا.

تعثر ذهنه, لم يجد تفسيرا للألم الذى لم يبرحـه علـى كـل محاولات الطبيب الكبير. آخرها قالها صريحة: سوف انتهى من عمل منظار القولون, وهو الذى سيوضح الأمر كله بعـد أخذ عينات لفحصها باثولوجيا."

أضاف مبتسما بعدها : "وسوف نحـدد الجـزء الـذى سنقطعه فى العملية الجراحية..إن كان قصيرا أو طويلا!!"

عرف أنهم يبحثون عن ورم خبيث فى أحشائه, فقـال فـى نفسه: "مازالت التفاصيل بعيدة .. مازالت الحرب مستمرة"

....

معذرة يا سيد اللذة

إليه انساب درب اللذة فانتشى, لم يصمت كعادته كلما قدمت الممرضة التى يجهل اسمها. أول ما جذبه فيها صوتها الذى يشى بحنية فى قلبها تكفى العالم كله!. وربما بسبب "المجال المغنطيسى", أو"الأورا", أو "المغناطيسية ", أو"الكهربية الحيوية", أو"اللهب الروحانى", أو"الإحساس الطليق", "أشعة الحياة".. أيا ما يكون الاسم, يعرفونه منذ قديم الزمان: ذلك السيال المنطلق من أحدهم الى آخر حاملا فكرة أو رغبة من العقل الواعى أو الباطنى. رسموه على هيئة مجال إشعاعي حول المرء , بيضاوي الشكل من الرأس حتى القدمين.

انتهت من وخزات الإبر, افتعل غضبة بسبب ذاك الممرض الصامت, وجده موضوعا مشتركا مناسبا فى حضرة الزوجة. فوجئ أن شاركته اللعنات وزادت!. لم تعد فى عجلة من أمرها كعادتها فى مرات سابقة.

اعتذر لزوجته بعينيه صامتا عن طول فترة تجاهلها, فوجئ أن سمعها تقول للممرضة:لم أجده مستعدا للحديث مع

أحد, كما أراه معك, اجلسي".. جذبت المقعد الوثير المكسو بالجلد الأبيض..وكانت صادقة الى حد الإصرار. نفذت صاحبة هالة السيال الجميل, ثم انشغلت طويلا بارتشاح دموي فى عضده, تتحسسه وتتفحصه. ولم تخرج من الغرفة قبل أن مسحت عنه ببلسم يدها وعينيها السوداوتين وبالمرهم. لم يشأ أن ينظر الى عينى زوجته, أغمضهما, شرد قليلا..قال فى نفسه:"أقسم أن مشاعر اللذة والألم متلازمان, بل وينشط أحدهما الآخر..كلاهما خبرة حسية وشعورية..أقسم أنك صادق يا صاحب كتاب "روضة المحبين", قلت أن اللذة تابعة للمحبة فى الكمال والنقصان..وأن اللذة والألم ينشأن عن إدراك الملائم والمنافى, وأن الإدراك سبب لهما.

... ...

مثلما أمضى بوذا سبعة أيام عار مع جلسته القرفصاء تحت شجرة التوت, وصبر حتى تلاشت الأعاصير والأمطار وصفا الجو.. فعرف سر الألم واللذة. انقضت الأيام السبعة الأولى له فى المستشفى. بدت له وكأنها زمن الرحلة معهما, ونفرت عروق رأسه بكل ما قرأ وسمع وعاش!

لم يختف الألم , نعم..لكنه أقل وطأة, بدأ الألم شديدا, شعر وكأن بطنه جوفاء, ثم أصبح أقل وطأة فبدا ألما باردا لشعوره برغبته فى الدفء, ثم هان قليلا مع الوخز بالمسكنات والمحاليل فأصبح ألما تشنجيا, موصولا بمغص, ومازال على حال الألم الثقيل.. يأمل لو يهون!

تعلق بشفتى الطبيب, صاحب السيال الصوفى واللحية المهذبة بامتداد الشارب حتى أسفل الذقن, وقد سأله حالا: "أى خطأ ارتكبته حتى تلبسنى الألم يا دكتور..بحرمانى من الطعام والشراب, وبوخزاته, وبشعورى بالعجز ؟!!"

هانت بسمة مطمئنة من الطبيب الصوفى, وقال:" لم تخطىء ولا أبويك..فقط لنرى فيك, ولترى فى نفسك أعمال الله وارادته"..

أزاح المريض حديثه الى ما يريد, لعله يطمئن قليلا,قال:"هل أوضحت أشعة الباريوم على القولون جديدا؟" .. "ليس بالضبط, يجب أن نتابع البحث..لا تقلق"

..."زهقت!!!"

لم ينتبه لغروب الطبيب, انتبه أكثر للذة كف ناعمة حنينة يعرفها, كانت تربت على كتفه!

ود لو يرد لها ما تفعله معه, بأن يشاركها ما فى رأسه: يقسمون "اللذة والألم" الى ثلاثة أقسام .. القسم الجسمي وهو الطعام والشراب, والوهمى وهو المنصب والجاه, والعقلى وهو الجمال وأصحاب العلم والفضيلة..وقالوا أن العقلى أفضلهم ويبعث على السعادة والرضا, أما أنا فأقول: اللذة والألم الجسمى نعمة من الله ولا يجب أن نقلل من متعتها وجمالها..هاأنذا محروما منها وأشعر بالحزن

.. بعد فترة صمت تابع: "وان كنت أقدر اللذة والألم العقلى".

... ...

راودته رغبة أن يعيش قسم اللذة والألم العقلى.. مضطرا!, أحد أصدقائه الأدباء اقترح عليه فكرة الانشغال عن حرمانه من الطعام والشراب بممارسة "الاسترخاء" و"التخيل" كما يفعل أهل "اليوجا". قبض على جفونه وذهب وحده.

لا يدرى لماذا تذكر واقعة "الحفرة البرميلية" . عندما أطلقوا عليه دفعة من رشاش سريع الطلقات. كان في طريقه إلى خندقه الخاص لإحضار بعض الكتب لسلامة موسى,

ورواية "آنا كارنينا" لتولستوى . هان عليه الرحيل بأوامر من قائد المستشفى الميدانى بعد اشتداد الحصار, ولم يهن أن يترك الكتب التى يعشقها.

لم يفكر طويلا فور إحساسه بالخطر, رشق جسده فى الحفرة القريبة, فوجئ بسقوطه فوق كتف أحدهم, سمع صوتا مبحوحا شحيحا:" ماتخافش يا أخويا..ما تخافش يا خويا"

استسلم لذراعى الجندى تجذبانه الى أسفل , وبكل طاقته حك هو جدار الحفرة بكتفيه وعجزية, فالحفرة لا تكفى إلا لأحدهما بالكاد. أخيرا نجحا, التصقا إلا من وجهيهما, فلما بحلق الى وجه صاحب الصوت الشحيح الذى يدعوه بعدم الخوف, عرف كيف يكون للخوف وجه وملامح وقد كسته الأتربة؟١

تابع: "حاولوا قتلى قبلك, لا تخرج من هنا, أنا هنا منذ الصباح, قادم من كتيبة النقل المجاورة, تركوا سيناء كلها, واجدعنوا على الوحدات الإدارية غرب القناة". فشل الرقيب الطبى فى إقناعه بالخروج من الحفرة والاحتماء بجماعة أفراد المستشفى, والتصرف معا. فشل, فتركه وحده مرشوقا فى الحفرة وخرج . عندما عاد أفراد الوحدة من جديد الى

موقعهم فى شهر يناير من السنة التالية, أسرع وحده الى الحفرة..لم يجد الجندى الذى احتواه , لكنه لاحظ بعض العظام وجمجمة ١١

بدا منتبها تماما وقد أفرج جفونه , يسأل زوجته: يحتمل أن أكون قد قصرت مع الجندى؟!, لم تفهم ولم يشأ أن يبوح لها بسر سؤاله.. ولم تعقب الزوجة.

... ...

يبدو أن الزوجة فضلت أن تدير الحديث بعيدا عن موضع الألم الذي ألم بزوجها فجأة, قالت بعد أن ألقت بالجريدة بعيدا:" جددوا حبس يوسف عبدالرحمن..الموضوع جد" ..لوى شفتيه, فتابعت: "من أين واتته تلك الثقة والشجاعة ليقول:"سوف أتكلم وأقول كل شئ". راوده تساؤل لم يخطر على باله من قبل:"هل مرضى هذا بسبب التسمم من أثر المبيدات الزراعيةالشديدة السامية التى استوردها؟!"

لم تعقب.

يبدو أنها فضلت الانتقال الى موضوع آخر, قالت:"متحدث رسمى مصرى يعلن أن مصر ملتزمة بالشرعية الدولية لتجنب استخدام القوة..بينما يدعو "بوش"

فرنسا وروسيا والصين المشاركة فى مواجهة الخطر العراقى!"

أشاح بوجهه لتتابع وحدها:"ربما من الأفضل أن نقرأ حظك اليوم ونرمى الجريدة ", فلما طال صمته, مالت نحو وجهه حتى شعر بسخونة بشرتها, تقول:"بدك فى شىء؟"

"فيك" !!

تبادلا قبلة طويلة.

....

معذرة يا سيد الطعام

فضوله فاض وغلب كل شىء, اجتاز كل الحواجز, بارح حدود جسده المنهك, غاص بعيدا يبحث عن مقهى الأصدقاء فى لقاء الثلاثاء الأسبوعى.. عن مكتبه الذى يقضى الساعات الى جواره, ربما أكثر مما يمض بجوار زوجته.. عن أبواب المقاهى والسينمات وقاعات الندوات.. عن بحر الإسكندرية الذى جاوره طوال أربع سنوات مضت. فضوله اجتاز كل الحدود ليبحث عن طبق فول بالليمون والبصل وزيت الزيتون.. يبحث عن فنجان قهوة الصباح والمساء.. يبحث عن سيجارة يلتهمها.. يبحث عن روائح الشواء والقلى وحتى سلق اللحوم والأطعمة.

... ...

قال الإمام الرازى عن "البصل":

"إذا خلل البصل قلت حرافته, وقوى المعدة.. والبصل المخلل فاتق للشهوة"...

"نصف كوب من عصير البصل مع كوب عسل , يغلى حتى يتبخر البصل وينعدم رائحته. تؤخذ جرعة منه بعد كل وجبة.. يستخدم للقوة التناسلية"

"أكل البصل مشويا بالفستق مع طلع النخل والعسل..يقوى الباءة" ...

"تطبخ شوربة البصل بنخاع العظام, تشرب كالمرق فى الغداء يوميا, يقال الإحساس بأى ألم"

وقال ابن البيطار عن البصل:

"البصل فاتق لشهوة الطعام, ماطف ,معطش, ملين للبطن, إذا طبخ كان أشد إدرارا للبول ويزيد الباءة إن أكل البصل مسلوقا"...

..وجدوا فى البصل فيتامينات وهرمونات جنسية مقوية للرجال. مادة "الكلوكنين" فيه تعمل عمل "الأنسولين" وتنظم السكر فى الدم. بالإضافة الى "الكبريت" ومركباته التى تسبب ادماع العين, فضلا عن وجود بعض الخمائر والأنزيمات المنشطة للغدد.

قديما قال "هيرودوت":"البصل هو الكرة الذهبية, عجبت للمصريين كيف يمرضون وعندهم البصل والليمون؟١"

وعن "الحبة السوداء" أو "حبة البركة" حدث ولا حرج.. وصفوها للذة وزيادة الشهوة ومواجهة الآلام.

"مغلى الحبة السوداء واستعملها مضمضة أو غرغرة يقال الآم الأسنان واللثة والحنجرة"...

"حفنة من الحبة السوداء مع سبع بيضات يوميا لمدة شهر, ويمكن إضافة ثلاثة فصوص ثوم بعدها.. يزيد الشهوة ويقلل الدهون فى الجسم."...

"طحن الحبة السوداء مع "الحلبة" قدر كوب , ثم يضاف قدر من "العنبر" المحال, يخلط فى إناء به عسل نحل..وتؤكل كما المربى بخبز قمح يقوى الباءة" ...

وفى كل الأحوال عند الضرورة على المرء اتباع الآداب التالية: دخول الحمام لقضاء الحاجة أولا.. يدعو الله قائلا:"اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنى".

وعن الثوم .. "يهرس الثوم ويسوى فى زيت الزيتون على نار هادئة حتى يصفر لونه, يعبأ فى قارورة .. عند الضرورة يدهن به جذر الاحليل (العانة) بحركة دائرية, ولا يغسل قبل ساعة..فيزيد الباءة" ...

" نصف فص من الثوم على مكان الألم فى الفم , يرفع ألم الأسنان , يوضع فى صيوان الأذن جهة الفك المؤلم, يرفع ألمه."...

.. الثوم غنى بالفوسفور والمواد الكبريتية والكالسيوم, محرض للشهية, ويحرك جدار المعدة. يحول دون تكون الدهون..فيه شفاء من سبعين داء. وللتخلص من رائحته تؤكل تفاحة بعده أو ورق النعناع أو مستحلب القرنفل.

وقال "رفق الدين البغدادى" فى كتابه"الطب فى الكتاب والسنة" عن العسل:

"ابدأ يومك بعسل النحل, فهو ما قال فيه القران الكريم:"يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس" (النحل- ٦٩).

... ...

غازلته الأطعمة واختزلت الى روائح غامضة تشاغله عن غير قصد. تواتيه رائحة البصل كلما ضاقت به السبل!. منذ يوم أن أخبرته أمه أنه ولد صامتا, لم يبك كما المواليد, ولم يبك إلا بعد أن دسوا بصلة فى أنفه.

الرائحة الكريهة لأنفاس زميلة العمل لم يبررها إلا بعد أن علم أنها تتناول الثوم يوميا منذ عشرات السنين , فطلب منها أن تكف عن فعلتها..الأن يشعر بالندم على فعلته!

الرائحة الهينة الملساء لحبيبته التى كانت, لم تبرح مناخيره . قادر هو على استحضارها وقتما شاء. فلما حضرت سألها: لماذا تموتين قبل الأوان؟! ولأنها قليلة الكلام مطمئنة النفس..ابتسمت صامتة وافتعلت انشغالها بشعرها الكستنائى الناعم, ثم ذهبت ولم تذهب رائحتها.

أما رائحة أمه التى ظن أنه نسيها, واتته , كان قد حفظها خلال فترة غيبوبتها الأخيرة . ما كانت تتقبل علاجا إلا بعد أن يجلس الى جوارها , يملأ أنفه برائحة الأمونيا المنبعثة مع أنفاسها- من جراء الفشل الكلوى الذى نال منها- يسألها أن تقبل أوامر الأطباء, فتمد ذراعها وسط دهشة الجميع مستسلمة لشكشكات غير راغبة فيها.

فلما جاءته رائحة جده, وهو تحت إبطه يحميه بالمعطف الأسود الصوف, فى طريقهما الى المدرسة الابتدائية , أيام الشتاء الممطرة .. ظن أن الروائح كلها ما خلقت إلا لحمايته كلما ضاقت به الدنيا.. فتمنى لو يبكى..لم يبك!

... ...

قال أحد الزوار أن روائح ومذاق الفاكهة والخضراوات ما عادت كما كانت, باتت مسخه حتى "الخيار" أصبح شائخا بلا طعم. فعقب أحدهم بأن أهل العراق يصنعون الخبز من نوى البلح بعد الحصار.. وساد الصمت حتى تابع ثالثهم:"بينما أمريكا تلقى الحبوب فى المحيط بما يكفى سكان أفريقيا شهورا"!!

علق الهامد على سريره:"الأسمدة الصناعية والمبيدات مع الجشع والجنون.. السبب فيما نشعر به من مرارة فى الحلق والقلب والعقل أيضا"!

... ...

خلال زيارة تالية قال لهم: "لكن الألم نعمة يا جماعة!!" ..رفع رأسه عن الوسادة متحديا صمتهم, وتابع: فى زمن الحرب, ومع دخول الدبابات المعركة, تلك التى نقلوها فى جسر جوى من أمريكا حتى العريش..زاد عدد المصابين, ولم تعد الأسرة تكفى, حتى امتلأت العنابر والممرات الموصلة نحو المدخل. فى التاسعة مساء وقد ظننت أننى انتهيت من مهمتى , اكتشفت أحدهم صامتا فوق المحفة ..لا يتألم!, سألته عما به, أشار الى بطنه, رفعت الرباط الصوفى

عن بطنه, وجدتها مبقورة, والأمعاء حولها!".. صاح يدعو كبير الجراحين, عنفه لترك الرجل طوال تلك المدة, برر بقوله :"لم يكن يتألم..أو على الأقل لم يقل ..آه!!".

اضطر الطبيب للضحك, ومنذ ذلك اليوم البعيد ما عاد يعبا بأصحاب الصوت المرتفع, القادرين على التألم..اعتنى أكثر بمن لا يصرخ ولا يقول "آه"!!

....

معذرة يا سيد الليل

الليل الذى يبدأ ثقيلا يجئ غواية, يدعوه الى المنفى , الى الزمن الغائر فى شعر رأسه وقد بات مبرقشا, وفى شقوق هينة حول عينيه وزاويتى فمه. فقط لأنه عاش فى هذا الزمان عمرا, مرا .. لم يبق منه سوى فحيح النهاية.

... ...

ما كان يدرى أن حالة "الفواق" أو "الزغطه" التى تلبسته مثيرة للقلق..كلما اتصل به ابن عمته الطبيب من المدينة البعيدة يسأله عنها, ولا ينتظر ردا, تأتيه الإجابة جليه , فالمسجى لا يستطيع متابعة جملة واحدة غير ممزقة بالزغطة.

ما استطاع كبح جماحها, افترسته وهو فى طريقه الى المستشفى..عفوا تتقاص أحشائه ويعلو صدره قليلا..مع صوت شهقة خبيثة. عامل مصعد المستشفى, الصبى العفريت انتابته ضحكة طويلة , لم يخفها مع نظرته الدهشة.

كان إيقاعها مع خطواته بين ردهات الدور التاسع..أمرا مضجرا. بات يتبعها لحظة بلحظة وكأنها المرض. ما كانت كذلك, بل لعبة يلعبها مع أصدقائه الصغار, حتى عندما

ينصحه نبيها منهم بشرب جرعة ماء..يرفض, سعيدا بإيقاعها المنتظم, وربما لأنها شدت انتباه الجميع من حوله!

... ...

في الليل دخل المستشفى, وهو لا يدرى سر قلق الطبيب الذى استقبله!

فى الليل شاهد تلك الفتاة النضرة الممتلئة ثقة وحيوية مصادفة, وما كان يدرى أنها قدره وهو قدرها..فتزوجها!

فى الليل قادته الطائرة للمرة الأولى الى البلاد البعيدة, وفيه تنقل بين الفنادق هناك..

فى الليل أدى مناسك العمرة, فلا يطيق أحدهم أداء مناسكها مع حرارة شهر أغسطس نهارا..

فى الليل عاش الخنادق والخيام أيام الحرب التى تراوده عن نفسها دوما!

فى الليل ماتت أمه ثم حبيبته التى لم يلق النظرة الأخيرة لأنه رفض اللقاء الأخير..ثم مات أباه, وهو لا يدرى لماذا يموت الناس ليلا؟؟!

فى الليل كثيرا ما يشعر بالجوع..للطعام والضحك والكتابة واللذة, جعله المشتهى..أكثر كثيرا من نهار أيامه !

وكان يونس فى بطن الحوت , يعيش ليلا دائما!

اصبح الليل عنده منفى كل شئ.. ما عاد شمسا وضاءه تكشف الأسرار كلها !

... ...

تعلو أصوات الأنين من الغرفة المجاورة لغرفته, كأن صاحبها الأواه يرتل تراتيله كلها , ولا يدرى لماذا تبدو هكذا جليه ليلا؟

فى كل مرة يسأل فيها أحد طاقم التمريض الذى يقتحم عليه ليلته لرفع عبوة المحاليل واستبدالها بأخرى.. يسأل: بماذا يعانى هذا المسكين؟

يجئ الرد فى الظلمة:"خليك فى حالك!"

فيما بعد فسر الرد الجاهز بسبب الإرهاق, لكنه أيقن أنهم يسخرون منه, أو هكذا اعتقد.

ليل الغرفة ٩٠٨ غير أى ليل...

كان يرى شبح المبنى الضخم من زجاج النافذة الموصدة, فيبدو كشاهد مقبرة. عرف أنه يعلو المستشفى الضخم الذى يقيم فيه,ومع ذلك تسكنه الأشباح. تملكه شركة توظيف أموال أعلنت رفضها رد أموال المودعين !

فضل ألا يرمى بصره فى الظلمة الى النافذة, ولا الانشغال بالظلال التى يراها خاطفة مسرعة, هاله أن تكون لطيور قتيلة تسقط.

لولا الإحساس بالشفقة على ما بذلته زوجته من جهد طوال اليوم, لصاح بأعلى صوته لأن تنهض من نومها لتتحدث إليه أو حتى تبقى صامتة. كانت تغط مع أنفاسها العميقة الرتيبة فى هدؤ لا يمثل قدر لهفتها واضطرابها لو همس باسمها مناديا, تبدو وكأنها ما كانت نائمة ولا حتى مع الكرى.

كانت الغرفة منسقة ونظيفة, لكنها مفتوحة السقف والجدران, مستباحة لريح الليل وهواجسه, ولضوء القمر الخبيث , ولأحذية الممرض الذى دخل حالا حاملا حقنة شرجية يقول:

"اتصل الدكتور عمرو الآن , وطلب عمل أكثر من حقنة شرجية حتى الصباح..

سوف يجرون لك منظارا على القولون فورا"

... ...

بالبكاء العنيد كان يقاوم أمه يوم رشقت مبسم الحقنة الشرجية فى مؤخرته صغيرا. بالنشاط والهمة كان يمرض أبيه يوم رشق نفس المبسم فيه قبل رحيله بناء على نصيحة الطبيب.

بالضحك الشقى كان يمزح مع أصدقائه الصغار و يهددهم بوضع الحقنة الشرجية كلها فى مؤخرتهم إن تشاجروا معه!

الآن يبدو مستسلما لرحيل الأيام التى كانت, ولمهمة الممرض فى عمله.

... ...

أمضى الليل على يقين أنه ليل بخيل وان طال, راودته أشباح أمواته كلهم ..أمواته فقط. صديق طفولته الأولى الذى ذبحته سيارة مسرعة, صديقه الشهيد الذى اختارته شظية مكتوب عليها اسمه, بينما كانا متجاورين.. وأناس غيرهما يتجددون كل ليله . فقال فى نفسه..ربما بسبب المبيدات السامة أو بسبب الحرب على العراق التى لم تبدأ بعد!

... ...

مع شقشقت الفجر, انتهت مهمة الممرض وهو يردد فى نفسه: أنا لم أزل طفلا, يجب أن أخبئ أحزاني تحت جلدى !!

....

معذرة يا سيد البشرى

بين ارتياد الألم واللذة وانتظار الرضى, كابد الخطو. زاده الشوق اشتياقا.. للحب الذى يعرفه العاشقون, للتحمل الذى أثبت ضعف جسده, للتأمل الذى جعله يرى ما خلف جدران الغرفة,وما تحت جلده وجمجمته, بل ويكشف ما فى نفسه المسجونة فى جسده.

ما عاد يملك غير الرجاء...

... ...

فى صباح اليوم الثانى عشر, أصبح كل شئ حوله غير محتمل. المرتبة التى ينام عليها غاصت, الكوميدين امتلأت بأشياء تخصه ولا تخصه, الخراطيم الموصوله بذراعه وبطنه, السكون الممزق بآهات أحدهم فى الغرفة المجاورة, بياض لون الحوائط وملابس الممرضين.

كل شئ من حوله هادئ إلا رأسه, نفر جسده فجأة بعصبية , رسم جسده زاوية قائمة . فأدرك فى تلك اللحظة الجهنمية أنه كان شغوفا بحسده الى حد الجنون.. ولم يسأل نفسه: لماذا؟؟

لماذا كل شئ..أن يكون جسده طهورا ومدنسا, وربما مقدسا أيضا .. يراه أزليا وهو موقن بالزوال؟! . كان جسده كل ما يملك فى هذا الكون.. يملكه بحق, ومساحة وجوده المتحقق. لا ينسى يوم ضبطته أمه فى ركن الغرفة منطويا على نفسه, يكتشف سيف الذكورة فيه. وان ابتسمت لم ينس قدر الورطة , لم يستطع تفسير وقفته نصف عار أمام المرآة, حتى الآن مازال يشعر بالورطة!

حرضه جسده على اكتشاف سر القبلة والرائحة واللمسة وأطراف اللذة كلها, جعله فى مواجهة المهالك, ويرى فى الألم لحظة قاسية ومقدسة معا!

جسده المحرض جعله منتبها حتى الآن لأن يتذكر النهاية, كل النهايات حتى سديم الأكوان البعيدة.

ما عاد يدرى.. هل يعيش الآن لحظة انتظار النهاية, لأنه أدرك حدود جسده وإمكاناته؟ أم لحظة فتوح لم يقرأ عنها من قبل.. يعيشها ويقبض عليها.

... ...

فور أن اقتحمه "محمود" كعادته, سأله إن كان معه كتاب الكلمات المتقاطعة الذي يحمله دوما فى بنطاله. وقد

أخبره عن أسرار تلك اللعبة..كيف أن جريدة الأهرام تكرر لعبتها ظنا منها أن أمثال محمود غير منتبهين؟ وأن الجرائد الأخرى أكثر حرصا وتطويرا لها. حدثه طويلا عنها وقد شاعت بعد معارك ٦٧ ولا يدرى لماذا؟

كان دوما يرفض اللعبة ظنا منه أنها لا تكسب المرء ثقافة حقيقية, وتأكد ظنه بمهارة الممرض فى حلها خلال دقائق , والسر فى ذلك تكرار المعلومات. الآن يسعى لأن يمارس اللعبة, ولا يدرى للبحث عن مثير آخر غير مرضه أم رغبة منه فى التخاص من جبرية الحياة التى يعيشها منذ أن اعتلى سريره هذا؟!

لم يهتم محمود بما طلبه منه المريض, جالس سريره. اهتم أكثر بما لاحظه فورا..سقوط خرطوم الرايل!!

انتبهت الزوجة وتابعت أوامر الدكتور عمرو فورا.. أن يتناول المريض فنجانين أو ثلاثة من الينسون أو النعناع, ولاحقت قسم التغذية لتنفيذ المطلوب . فلما شربها كلها ولم يتقيأ ..كانت البشرى التى زفتها لكل زوار النهار وأول الليل!

... ...

أسرع إليه الطبيب..فحصه مليا, وكرر أسئلته القديمة كلها.. لوى شفتيه وخرج صامتا. تابعت الزوجة "الرقى" كعادتها وشقيقتاه كل صباح ومساء. وضعت يدها على بطنه (موضع الألم) تمتمت بكلمات لم تبين له . هذا الصباح سألها:"ماذا ترتلين؟"

ردت وهى تتابع مهمتها بهمة واخلاص: "بسم الله الرحمن الرحيم ثلاث مرات..ثم أقول أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات, وأتابع الصمدية والمعوذتين قدر ما أستطيع".

... ...

لم تكن المرة الأخيرة يعاود فيها التقاط صور جديدة بالأشعة على البطن (نائم- واقف), مازال الطبيب يبحث عن شئ فى رأسه.

صادق أغلب العاملين بقسم الأشعة, إلا ذاك الطبيب صاحب الطلعة الوقورة الذى مازال يتصيده.. فى كل مرة يطل من برواز الباب الموارب, ثم يخرج, ويتقدم نحوه فى هدؤ..يربت على كتفه ويرمى السلام. إلا تلك المرة, سأله: "رجعت الينسون, تقيأت؟!". فلما سمع كلمات النفى وقد

استرسل المريض فى وصف ما تناوله..ابتسم بسمة عريضة, ربت على كتفه للمرة الثانية, ثم ذهب صامتا. كانت بسمته هذه المرة وبعد أربعة عشر يوما غير كل المرات السابقة.

... ...

عاد وأخبر زوجته بما كان منذ قليل, ابتسمت قائلة: "خيرا". لم تنتظر لتسمع منه أكثر, لاحقته ضاحكة, ثم صاحت قائلة:" نائب الكنيست الإسرائيلي "محمد بركه" طردوه لأنه قال أن الفلسطينيين ليسوا نعاجا فى مزرعة "شارون". ابتسم هو أيضا!

سألته إن كان يريد منها أمرا, لم يعلق, تابعت وحدها وهى تقلب صفحة الجريدة قائلة:" قبضوا على اثنين من الزنوج الأمريكان, يحتمل أنهما وراء القتل فى واشنطون. الأول شابا فى العشرين اسمه"روهان مالفو" مع زوج أمه وانتبه جيدا لاسمه "جون..دانيال..محمد"!!

ولم تسمع تعليقا, تابعت بأنهم جددوا حبس "يوسف عبد الرحمن" أربعين يوما. ثم شغلهما "محمود" أكثر. جاء وبين أصابعه ورقة كراسة مكتوب عليها .."محمود حماد.. (نجم التليفزيون والسينما مستقبلا) مع أرقام تليفونات المستشفى!

"هل تعنى؟

"بل ظهرت على شاشة التليفزيون, وكل من فى المستشفى يعرفون, ويعرفون أن مثلى الأعلى هو الفنان شعبان عبد الرحيم"

"..........."

" تسمعنى؟"

"أسمعك"

كان صوته جميلا بحق, أو هكذا استقبلته أذن المريض الذى رفض العودة الى السرير وبقى جالسا على المقعد الجلدى الأبيض.

... ...

شد انتباهه للمرة الأولى, ذاك الشيف صاحب التوك أمامه على شاشة التلفاز. يرفض تلك البرامج مدعيا بأنها تسخر من عقول وحافظة نقود المشاهدين.. كان يعتقد ذلك. الآن طلب ورقة وقلما, كتب طريقة إعداد طبقا للحلوى لم يذقه من قبل.

بودرة كريم شانتيه, مع جيليه, وعصير فراولة ..معا فى الخلاط الكهربائى. يصب الخليط فى كؤوس زجاجية,

يوضع على سطح كل كأس حبات من الفراولة والكريز, وشرائح من الكيوى والشكولاته..ثم توضع فى الثلاجة لمدة ساعة!

فلما انتهى من انهماكه, سألته زوجته عن "البصارة" التى زرعها خياله من قبل..ابتسم وأخبرها بأنها ستصنعها وهى الى جواره فى المطبخ فور عودتهما!!. لم يشأ أن يخبرها بأنه بدأ يعانى من الجوع أكثر كثيرا من الأيام الأربعة عشر الماضية.. وأن ما تناوله من ينسون ونعناع وجيلى لم يجيب على أسئلة أمعائه الخاوية.

... ...

لم تتنازل شقيقتاه وزوجته عن ممارسة "الرقى" فوق موطن ألمه الذى قل كثيرا. فى كل مرة..يغلق عينيه, يغمره إحساس غريب بالتلاشى والاستسلام. لا ينتبه بما يرتلونه, ومع ذلك فقد القدرة على التخيل , كم حاول اصطياد ذلك الطائر الأسطوري الذي يحمله عنوة الى غرفة نومه, مكتبه, أصدقائه الأدباء, بحر الإسكندرية..الى الدنيا الذي يتمنى أن يعرفها, كأنه ما عرفها من قبل.

فلما رفعت التى تمارس مهامها ..يدها, لم يفرج جفونه , ربما لاغرائها أن تتابع, وربما لعدم رغبته فى رؤية الغرفة.

صاحوا باسمه لاستقبال الدكتور عمرو الذى وجده مبتسما مطمئنا, وما أن هم لسؤاله..اعترض الطبيب: "لا تسألنى عن سبب الحالة التى انتابتك لأسبوعين, ولا كيف شفيت منها.. أظن أنها نوع من الابتلاء؟!"

استسلم الذى رفض البقاء نائما على السرير, مفضلا الحديث مع الطبيب من فوق المقعد الأبيض.. ولم يسأل حتى انقضت فترة.

تابع الطبيب: "ربما بسبب ما رأيت الآن,ممارسة الرقى فوق موطن الألم ,هون الله عليك.. و

وأزاح السبب عنك....

لتزداد حيرتى فى حالتك ...

ولتطمئن أنت...

وهذا يكفينى ويكفيك .. الآن على الأقل"

فابتسم الذى كان مريضا, وقال: "وأنا أيضا يكفينى.. ولكن الى الأبد"

....